القرآن وعلم البلاغة

د.دلال عبّاس

إنَّ إعجاز القرآن، هذا الكتاب الذي لقي من أهله والدائنين به تقديسًا ملك عليهم منافذ الإحساس، فلا يكادون يدينون بإعجاز كتاب آخر له مثل هذه المكانة في قومه الذين نزل عليهم وظهر بينهم رسول أو داعية يؤكّد إعجازه وتفوّقه... ولا سبيل إلى بيان أسباب هذا الإعجاز إلا بدراسات واسعة تتناول كل ما يتعلّق بهذا الكتاب من ناحية أفكاره وعرضها، وألفاظه ونظمها، وما انفرد به من أساليب لم يألفها أهله وإنْ كانوا أهل اللغة التي نزل بها.

قبل أنْ تُصبح البلاغة علمًا في العصر العبّاسيّ كان للعرب قبل الإسلام ملاحظات يُعربون فيها عن إعجابهم ببلاغة القول في تصاوير بيانيّة، ونحن إنْ راجعنا كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، لتبثّنا ما هي الأوصاف التي كان العرب يطلقونها على خطبائهم وشعرائهم وعلى خطب هؤلاء وأشعارهم. وكيف كانوا ينقّحون كلامهم ويجوّدونه. ساعد في نشأة هذا الذوق الأسواق الكبيرة التي كان الخطباء والشعراء يتبارون فيها...

وأخذت هذه العناية تنمو بعد ظهور الإسلام بفضل ما نهج القرآن ورسوله من طرق الفصاحة والبلاغة.

وجاءت الفتوحات وتحضَّر العرب، واستقرّوا في الأمصار ورقيت حياتهم العقليّة، وأخذوا يتجادلون في جميع شؤونهم السياسيّة والعقيديّة... وكان من الطبيعيّ أنْ ينمو النظر في بلاغة الكلام وأنْ تكثر الملاحظات المتّصلة بحسن البيان، في الخطابة وفي الشعر...

ويمكن القول إنَّ الملاحظات البيانيّة في العصور الثلاثة الجاهليّ وعصر صدر الإسلام والعصر الأمويّ لم تغب عن أذهان البلاغيين حين أصلوا قواعد البلاغة، وهي بحقّ تُعدّ الأصول الأولى لقواعدهم.

في العصر العبّاسيّ الأوّل: تتسع الملاحظات البلاغيّة بتطوّر الحياة العقليّة والحضاريّة، وإتقان غير العرب للعربيّة، وتحوّلِ الفكر العربيّ واصطباعه بثقافات أجنبيّة، وفي طليعة من ثبّتوا الأسلوب الأدبيّ الجديد الذي سُمّي بالأسلوب المولّد ابن المقفع، الذي ذكر الرواة أنّه سئل عن البلاغة وتفسيرها فقال[1]:

[1]- البيان والتبيين مج1، ص 115.

"البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة ومنها ما يكون الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا وخطبًا ومنها ما يكون رسائل؛ فعامّة ما يكون من هذه الأبواب الوحيُ فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة...".

وغير ابن المقفع أدلى معاصروه من الكتّاب والشعراء بملاحظات بلاغيّة وبيانيّة، محاولين استيعاب خصائص الأدب القديم، وإلى جانب هؤلاء ظهر في أوائل القرن الأوّل للهجرة وأوائل الثاني طائفتان من المعلمين: هما طائفة المتكلّمين الذين كانوا يُعْنَون بتعليم الشباب فنَّ الخطابة والمناظرة، ثم طائفة اللغويّين والنحْويّين، وكانوا يحترفون تعليم اللغة ومقاييسها في الاشتقاق والإعراب، وتلقين الناشئة شيئًا من الخصائص البيانيّة عَرَضا في ثنايا شرحهم وعرضهم للقواعد اللغويّة والنحويّة. ومن يرجع إلى كتاب البديع لابن المعتزّ يجده يذكر الخليل بن احمد في صدر حديثه عن التجنيس والمطابقة. كما أنَّ العودة إلى كتاب سيبويه يجده يعرض لبعض الخصائص الأسلوبيّة التي عُني بها في ما بعد علم المعاني المختلفة لبعض الأدوات، ومن حين إلى حين نلتقي بإشارات إلى بعض مسائل بيانيّة. وتكثر هذه الإشارات عند الفرّاء (المتوفّى سنة 207هـ) في كتابه "معاني القرآن"، إذ عُني فيه بشرح أي الذكر الحكيم شرحًا بَسَط فيه الكلام في التراكيب وتأويل العبارات وتحدث فيه عن التقديم في الألفاظ والتأخير والإيجاز والإطناب والمعاني التي تخرج إليها بعض الأدوات كأداة الاستفهام، كما أشار إلى بعض الصور البيانيّة من مثل التشبيه والكناية والاستعارة، وكان يعاصر الفرّاء أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفّى سنة 208هـ، وكتابه "مجاز القرآن" وظاهر عنوانه أنَّه صنَّفه في المجاز بالمعنى البلاغيّ الاصطلاحيّ، ولكنَّه كما قال ابن تيميّة "أوّل من عُرف أنَّه تكلّم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه، ولكنْ لم يَعنِ بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة، وإنَّما عنى بمجاز الآية ما يُعبَّر به عن الآية". على أنَّه يُلاحظ أنَّه اختار الآيات التي تصوّر طرقًا مختلفة في الصياغة والدلالة، متمثّلاً بما يشبهها من أشعار العرب وأساليبهم، وشارحًا لما تتضمّنه من لفظ غريب. وأدّاه هذا الاختيار إلى أنْ يتحدّث عما في الآيات من استعارة وتشبيه وكناية وتقديم وتأخير وحذف وتكرار وإضمار. وتوسَّع في تصوير الخصائص التعبيريّة كالدلالة بلفظ الخصوص على معنى العموم وبلفظ العموم على معنى الخصوص، وكمخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ومخاطبة الجميع مخاطبة الواحد، ومخاطبة الواحد

مخاطبة الاثنين، وتنبّه في تنايا ذلك إلى الصورة العامّة للالتفات، وإنْ لم يقترح لها اسمه الاصطلاحيّ[1].

ومن معاصري الفرّاء كذلك الأصمعيّ المتوفّى سنة 211هـ، ذكر أنّه ألّف في التجنيس كتابًا، لكنَّه لم يصلنا.

وعلى هذه الشاكلة كان المعلّمون من اللغويّين والنحاة ينثرون في تضاعيف كلامهم وشروحهم للشعر وآي القرآن الكريم ملاحظات مختلفة على بلاغة الكلام وصوره البيانيّة والتعبيريّة، بحيث يمكن أنْ يُقال إنَّهم أدّوا حتى أوائل القرن الثالث الهجريّ في هذا الصدد خدمة قيمة بفضل نظراتهم الفاحصة الدقيقة[2].

المتكلّمون– المعتزلة: ودورهم في تطوّر علم البلاغة: انقسم المتكلّمون منذ أواخر القرن الأوّل للهجرة فرقًا تتجادل في نظرياتها العقيديّة من إرجاء وجبر واختيار... وكان منهم من يحسن الخطابة والمناظرة والجدل، ومنهم من لا يوفّيها جميعًا حقوقها، وكثر الحديث في قوّة الحجج وفي وضوح العبارة ودقتها وفي جهارة الصوت وغير ذلك... ويمكن تعرّف كلّ ذلك من خلال مراجعة كتابي الحيوان والبيان التبيين للجاحظ (المتوفّى سنة 255هـ). فقد سجل الجاحظ كثيرًا من ملاحظات معاصريه لا سيّما المعتزلة حول صفات الألفاظ والمعاني ووجوب مطابقة الكلام لسامعيه. وأكثر الحديث عن جزالة الألفاظ وفخامتها ورقّتها وعذوبتها وخفّتها وسهولتها. كما عرض لتلاقي الكلمة مع الكلمة. ونراه يتنبَّه في دقّه إلى مواقع الألفاظ في الذكر الحكيم وكيف أنَّ الكلمة المرادفة لأخرى لا يصحّ أنْ تُستخدم مكانها. وقد توقَّف مرارًا في الحيوان، وخاصَّة في جزأيه الرابع والخامس يكشف عن الدلالات الدقيقة للآيات، وأشار في ثنايا ذلك لما فيها من استعارات وتشبيهات وتمثيلات، وكذلك صنع في تعليقه على بعض الأشعار. وقد أكثر من ذكر التشبيه بمعناه الاصطلاحيّ نفسه[3]، وكذلك صنع بالاستعارة وهي عنده من باب المجاز، ومن طريق تصويره لها تعليقه على الآية الكريمة: (إنَّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنَّما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصْلَوْن سعيرًا)، إذ قال إنَّها من باب المجاز والتشبيه على شاكله قوله تعالى: (أكّالون للسحْت)، ... ويمضي فيقرن بالآية الكريمة بعض آيات أخرى من التنزيل، وبعض أشعار العرب التي تجري مجراها في الاستعارة...

---

[1]- مجاز القرآن لأبي عبيدة بتحقيق محمّد فئاد سزغين (نشر الخانجي)، ص 11.
[2]- شوقي ضيف. البلاغة تطور وتاريخ. ط.4، دار المعارف [لا تا.]، ص 32.
[3]- انظر فهرس الحيوان، مج7، ص 629.

يمكن القول إنَّ الجاحظ قد ألَّم في كتاباته بالصور البيانيّة المختلفة، وبكثير من فنون البديع، غير أنَّه لم يَسُق ذلك في تعريفات وتحديدات، فقد أورد النماذج البلاغيّة، و لم يُعنَ بتوضيح دلالة المثال على القاعدة البلاغيّة التي يقرّرها.

وقد ظلَّت كتابات الجاحظ وملاحظاته في البيان والبلاغة مَعينًا لا ينفذ لمدِّ الأجيال التالية بكثير من قواعدهما... وما من شكٍّ في أنَّ كتابه المفقود الذي صنَّفه في "نظم القرآن" وأشار إليه في كتاب الحيوان[1] كان يشتمل على كثير من ملاحظاته البلاغيّة.

من اللغويّين الذين أبدوا ملاحظات بلاغيّة في ثنايا تعليقاتهم على نصوص الشعر وآي الذكر الحكيم: ابن قُتيبة (المتوفّى سنة 276هـ) والمبرّد (المتوفّى سنة 285هـ) وثعلب (المتوفّى سنة 291هـ).

أمّا ابن قُتيبة فإنَّه نثر جملة ملاحظاته في كتابه "تأويل مشكل القرآن"[2]، الذي صنَّفه للردّ على الملاحدة وأشباههم الذين يطعنون على القرآن الكريم، فيقولون إنَّ به تناقضًا وفسادًا في النظم واضطرابًا في الإعراب، وهو طعن مردّه إلى جهلهم بأساليب العربيّة، ومن ثمَّ ألّف كتابه عارضًا فيه بعض آي الذكر الحكيم مستشهدًا لها بنصوص الشعر... وعرض ابن قُتيبة لصور قرآنيّة ممّا يدخل في المجاز المرسل والاستعارة، والتقديم والتأخير، في مثل الآية الكريمة (فضحكت فبشّرناها بإسحٰق) أي بشّرناها بإسحٰق فضحكت. وتحدّث عن الحذف والاختصار في مثل: (واسأل القرية التي كنّا فيها) أي سلْ أهلها. وعن تكرار القصص في القرآن، وعن التعريض والكناية وقسمها أقسامًا، وعن مخالفة ظاهر اللفظ معناها في مثل (ومكروا ومكر الله)، وقد سمَّى البلاغيّون ذلك باسم المشاكلة.. وقد أفاض في تفسير بعض آي الذكر الحكيم مصورًا وجوهًا من المجاز والبيان.

من مباحث المتكلّمين البلاغيّة كذلك: النكت في إعجاز القرآن للرمّانيّ:

مؤلّف هذه الرسالة[3] عليّ بن عيسى الرمّانيّ (المتوفّى سنة 386هـ)، أحد أعلام المعتزلة في عصره..

يعرّف البلاغة بقوله إنَّها: عُلْيا ووُسْطى ودُنْيا، والعليا هي بلاغة القرآن، والوسطى والدنيا بلاغة البلغاء بحسب تفاوتهم في البلاغة. ويقول إنَّ البلاغة على عشرة أقسام هي: الإيجاز والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة

---

[1]- وردت الإشارة إلى هذا الكتاب في الحيوان مج3، ص 86.
[2]- تأويل مشكل القرآن لابن قُتيبة، تحقيق السيد أحمد صغر (ط. الحلبي) ص 15.
[3]- انظرها في ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ط. دهلي 1934م، ص 67.

وحسن البيان. وهو يفصّل الحديث في كلٍّ قسم من هذه الأقسام مبتدئًا بتعريفه ثم مصوّرًا شُعبَه، ممثّلاً لها بآي الذكر الحكيم..

إعجاز القرآن للباقلانيّ: (المتوفّى سنة 403هـ)، وهو من أعلام المتكلّمين الأشاعرة. يستهلّ كتابه بالتعريض لمطاعن الملاحدة على أسلوب الذكر الحكيم، مبيّنًا أنَّ الحاجة إلى الحديث في إعجاز القرآن أمسّ من الحاجة إلى المباحث اللغويّة والنحويّة، ويصرّح بأنَّه سيضيف إلى من سبقوه ما يجب وصفه من طرق البلاغة وسبل البراعة.. ويُبيّن في كتابه أنَّ معجزة القرآن تقوم على بلاغته، ويستشهد لذلك بآي من الذكر الحكيم، ويردّ وجوه الإعجاز القرآنيّ إلى ثلاثة أمور هي: تضمّنه الإخبار عن الغيوب، وما فيه من القصص الدينيّ وسِيَر الأنبياء، ثمّ بلاغته، ويُجمل هنا نظريته في إعجاز القرآن البلاغيّ فيقول: "إنَّه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحدّ الذي يُعْلَم عجز الخلق عنه"... ويحاول الباقلانيّ تفسير نظريّته فيتحدّث عن نَظْم القرآن ويقول إنَّه مخالف للمألوف من كلام العرب، وله أسلوب يتميَّز به يباين أساليبهم في الكلام الموزون والمنثور بضربيه من السجع والترسّل، وهو أسلوب فريد تطّرد فيه البلاغة اطرادًا، يشمل جميع آياته من دون أيّ تفاوت. ويعقد فصلاً يتحدّث فيه عن وجوه البديع، ليرى هل يمكن تعليل الإعجاز القرآنيّ بها أو لا يمكن، ويفتتحه بالحديث عن الاستعارة مثله في ذلك مثل ابن المعتزّ في كتابه "البديع" وأبي هلال العسكريّ في كتابه "الصناعتين" ويتلوها بالإرداف ثم المماثلة، فالجناس، والموازنة والمساواة... ووجوه البديع المختلفة.

يتحدّث الباقلانيّ عن كيفيّة الوقوف على إعجاز القرآن، ويقول إنَّه لا يقف عليه إلاّ من عرف معرفة بيِّنةً وجوه البلاغة العربيّة وتكوّنت له فيها ملكة يقيس بها الجودة والرداءة في الكلام، بحيث يميّز بين نمط شاعر وشاعر ونمط كاتب وكاتب، وبحيث يعرف مراتب الكلام في الفصاحة... ويتحدّث عن جمال نظم القرآن وكيف أنَّه وزّع على كلّ آياته بقسطاس، سواء منها القصص وغير القصص، بينما يتفاوت كلام البلغاء من الشعراء حتى في القصيدة الواحدة.

ويعقد فصلاً بعنوان "وصف وجوه البلاغة" يلخص فيه الوجوه العشرة للبلاغة التي صوَّرها الرمّانيّ في رسالته "النكت في إعجاز القرآن.. ثمَّ يقول إنَّ بلاغة القرآن لا تقع بوجه من الوجوه التي عدّدها الرمّانيّ، بل هي تقع مقترنة في نسقه المحكم، بحيث لا يقال إنَّ التشبيه معجز أو التجنيس معجز، إنَّما يُقال إنَّهما مُعجزان بنظمهما وصوغهما الذي يسمو إلى الطبقة

العالية من طبقات البلاغة الثلاث.. مسترسلاً في الحديث عن إعجاز القرآن بخروجه عن عـــادة البلغاء وارتفاعه عن مستوى بلاغاتهم..

إعجاز القرآن لعبد الجبّار:

القاضي أبو الحسن عبد الجبّار الأسدآبادي قاضي قضاة الدولة البويهيّة بإيران وأكـــبر أعلام المعتزلة في عصره (المتوفّى سنة 415هـــ). أهمّ مصنّفاته الكثيرة كتاب "المغنّي في أبواب التوحيد والعدل" صدر الجزء السادس عشر منه الخاصّ بإعجاز القرآن، وفيه فصلان قصـــيران لهما علاقة بتأريخ علم البلاغة وتبيّن تطوّره. عرض عبد الجبّار في أوّلهما رأي أستاذه أبي هاشم الجبائيّ في الفصاحة التي بها يفضل بعض الكلام على بعض، معقّبًا عليه، وفي ثانيهما عرض رأيه الخاصّ في الوجه الذي يقع له في التفاضل في فصاحة الكلام..

خلاصة رأي عبد الجبّار- الذي بنى عليه عبد القاهر الجرجانـــيّ رأيه- في أنَّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام من حيث هي، فالكلمة لا تعدّ فصيحة في نفســـها، إذ لا بـــدّ مـــن ملاحظة صفات مختلفة لها، لا بدّ من ملاحظة أبدالها ونظائرها، ولا بدّ من ملاحظة حركاتهـــا في الإعراب، ولا بدّ من ملاحظة موقعها في التقديم والتأخير، وبذلك يقترب عبد الجبّار اقترابًا شديدًا من عبد القاهر في تفسيره للنظم في كتابه دلائل الإعجاز.

وضع عبد القاهر لنظريّة المعاني:

عبد القاهر بن عبد الرحمٰن الجرجانـــيّ، ولد بجرجان بين طبرستان وخراسان، كـــان فقيهًا شافعيًّا ومتكلّمًا أشعريًّا، درس على محمّد بن الحسن الفارسيّ ابن أخت عليّ الفارســـيّ، وكان يُعدّ إمام النحاة بعده... غير أنَّ شهرته إنَّما دوّت في الآفاق بكتاباته البلاغيّة (توفّي سنة 471هـــ).

لعبد القاهر مكانة كبيرة في تاريخ البلاغة، إذا استطاع أنْ يضع نظريَّتَي علمي المعـــاني والبيان وضعًا دقيقًا. الأولى في كتابه دلائل الإعجاز والثانية في كتابه أسرار البلاغة.

كان عبد القاهر يرى أنَّ علوم البلاغة علم واحد تتشعَّب مباحثه، وسمَّى في الدلائل علم المعاني باسم "النظم" وهو اصطلاح كان يشيع في بيئة الأشاعرة، إذ كانوا يعلّلون إعجاز القرآن بنظمه، وبرهن عبد القاهر أنَّ إعجاز القرآن للعرب عن معارضته وقعودهم عن محاكاته إنَّمـــا كان لأوصاف نزل بها، وهي أوصاف لم تكن في ألفاظه من حيث هي ألفاظ منطوقة بأصواتها

وحروفها وحركاتها وسكناتها، وإنَّما من حيث المعاني المتّصلة بتراكيبها وأساليبها، ويقـــول إنَّ الصور البيانيّة تدخل في التراكيب والأساليب، فهي جزء من النَّظم وليست سرّ جماله وإعجازه. وهو بذلك يرُدّ إعجاز القرآن إلى خصائص في أسلوبه وراء جمال اللفظ وجمال المعـــنى، أي إلى خصائص في نظمه تطّرد في جميع آياته. والنظم في رأيه هو معاني النحو التي يدور عليها تعلّـــق الكلام بعضه ببعض..

وساق عبد القاهر الأمثلة مشيرًا فيها إلى جمال التعبير النحويّ وحسن ما يداخله مـــن صيغة فعليّة أو تقديم أو تأخير أو وضع للفاء أو ثمَّ أو فصل للكلام واســـتئناف أو تـــنكير أو تعريف أو مزاوجة بين كلامين في الشرط والجزاء أو تقسيم ثم جمع. وهذا الضـــرب الأخـــير يدخل في البديع والحسن المعنويّ.

إنَّ الجديد عند عبد القاهر أنَّه نظر إلى اللغة نظرة إحاطة فلم يقصر نشاطه على جانب من جوانبها دون الآخر، وإنَّما نظر إليها على أنَّها كلّ لا يمكن فصل جزء منه عن الآخر.

لقد وصل عبد القاهر بين الإعجاز وبين النظم مؤكّدًا أنَّه لا يتم في الكلمة المفردة وإنَّما في ذلك المجموع الذي يسمّى بالنظم إذ يقول:

"إنَّ الإعجاز ينبغي أنْ يكون وصفًا قد تجدد بالقرآن وأمرًا لم يوجد في غيره و لم يُعرف قبل نزوله... ويؤكّد عبد القاهر أنَّ النظم إنَّما يقوم على دعائم ثلاث:

1- اللفظة المفردة التي هي اللبنة الأولى في بناء العمل الفنـــيّ القولي. واختيار الألفاظ على قدود المعاني والأفكار.

2- المعنى النحويّ الذي تدلّ عليه هذه الألفاظ بتضامّها وتساوقها.

3- جعل ترتيب الألفاظ نحويًّا ملائمًا لترتيب المعاني في النفس.

4- اختيار الألفاظ على أساس من ملاءمة الجرْس للفكرة.

5- المعنى الثاني أو معنى الحقّ.

وقد استطاع أنْ يكشف عن القوالب التي تصاغ فيها هذه المعاني بالتشبيه والاســـتعارة والكناية والمجاز.. وإذا كان عبد القاهر قد انفرد من بين سائر البلاغيّين بجمع الأشتات المتفرّقة لنظريّة النظم مبتدئة بالجاحظ ومنتهية إليه، فإنَّه قد استطاع أيضًا أنْ يكشف عن الفنيّة الدقيقة في بناء الاستعارة، ومن رأيه أنَّ الاستعارات قد لا يمكن أنْ تُحال إلى التشبيه، وإنَّما ينبغـــي أنْ يحسّها الأديب أو الناقد وأنْ يرى ما فيها من الحسّ والدقّة والأصالة.. ولا ريب في أنَّ تقريـــر عبد القاهر لهذا الملحظ كان له أثره في ما بعد في حركات التجديد البلاغيّة في العصر الحديث.

وهكذا يكون عبد القاهر الجرجانـــيّ واضع علم البلاغة، والمؤسّس لها، لأنَّه أوّل مـــن وضع نظريّة متكاملة في البلاغة. أمّا السابقين عليه فلم تكن بحوثهم غير جزئيّات مشـــتّتة، لا تصل بين أجزائها وحدة بلغت من الدقّة والأصالة ما بلغته عند عبد القاهر.

ولقد كان لعمله هذا أثره في من جاء بعده مـــمّن تصدّوا للدرس البلاغيّ في صـــورة محدّدة بينة، نظامها التقسيم والتحديد، وجَماعها المنطق في التركيب والتبويب، وخصائصـــها المناقشة لكثير مما وصل إليه عبد القاهر.

نظريّة عبد القاهر[1]:

مجمل مباحث علم المعاني كما أوردها عبد القاهر:

- الإسناد والمسند والمسند إليه وما يجريان فيه من صور كثيرة.
- والشرط والجزاء يأتيان على صور كثيرة ولكلّ صورة دلالتها الخاصّة.
- والحال تكون اسمًا أو فعلاً أو جملة إسميّة خبرها اسم أو فعل..
- للحروف أيضًا خصائص دقيقة: مثلاً النفي بلا، وموضع استخدام إنْ الشرطيّة غير موضع استخدام إذا...
- اختلاف ومواضع حروف الوصل والعطف، ومواضـــع الفصـــل والوصـــل بـــين العبارات.
- التعريف والتنكير.
- مواضع التقديم والتأخير والذكر والحذف والتكرار والإضـــماء والإظهـــار وهـــذه المباحث هي المباحث نفسها التي انتهى إليها علم المعاني عند الزمخشريّ والرازيّ والســـكاكيّ ومن خلفوهم...

- ويعقد عبد القاهر بعد ذلك فصولاً يصوّر فيها نظريّته في المعاني الإضـــافيّة، ويبـــدأ بالتقديم والتأخير لأجزاء الكلام، ويشير إلى ما قاله سيبويه من أنَّهم يقدّمون المفعول على الفاعل أحيانًا إذا كان بيانه أهمّ وكانوا بشأنه أعنى... ويرى أنَّ التقديم والتأخير في الكلام البليغ إنَّما يكون لعلل بيانيّة يقتضيها- كما قال في أوائل كتابه- ترتيب معاني الكلام الإضافيّة في نفـــس صاحبها.

[1]- دلائل الإعجاز، ص 63.

– وينوّه عبد القاهر بنظم الكلام وأنَّ فصاحته وبلاغته وروعته إنَّما تُرَدُّ إلى هذه المعاني الإضافيّة التي يجلوها، ويعرض لبعض الصيغ القرآنيّة وغير القرآنيّة مبيّنًا ما فيها من دقّة التعبير وجماله.

ويتحدّث عن الإعجاز القرآنيّ ويردّ ما يُظَنّ من أنَّ اللفظ وما قد يتّصل به من استعارة وغير استعارة مدخلاً فيه، وكذلك الشأن في حسن الألفاظ وجمالها الحسيّ. ووقف مرارًا عند الصور البيانيّة من المجاز والكناية والاستعارة ليؤكّد أنَّ جمالها لا يرجع إلى مدلولاتها ومضامينها، وإنّما يرجع إلى المعاني الإضافيّة التي يلاحظها الحاذق البصير في تراكيب العبارات وصياغاتها وخصائص نظمها وصور نَسقها وسياقها.

تطبيق الزمخشريّ المعتزليّ في الكشّاف.

جار الله محمود بن عمر، ولد بزَمَخْشَر في خوارَزْم في فارس سنة 467هـ. له الكثير من المصنّفات اللغويّة والدينيّة، أهمّها الكشّاف الذي استطاع أنْ يقدّم فيه صورة رائعة لتفسير القرآن، تعينه في ذلك بصيرة نافذة تتغلغل في مسالك التنزيل وتكشف عن خفاياه ودقائقه، كما يعينه ذوق أدبيٌّ مرهف يقيس الجمال البلاغيّ قياسًا دقيقًا، وما يُطْوى فيه من كمال وجلال.

سمّى الزمخشريّ كتابه: "الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"، لخَّص في مقدّمته الكلام على أهميَّة علم التفسير... ولا يمكن لأحد في رأيه أنْ يتصدّى لهذا العمل الجليل إلاّ "من برع في علمين مختّصين بالقرآن هما علم المعاني وعلم البيان، وتمهّل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة".

إذًا التفسير لا يقتصر على معرفة معاني القرآن الكريم فحسب، بل هو أيضًا بيان لأسرار إعجازه، وهذه المرّة الأولى التي نلقى فيها هذا التمييز بين العلمين الأساسيّين للبلاغة أي علم المعاني و علم البيان وكان عبد القاهر من قبل يُسمّى العلم الأوّل علم النظم أو الأسلوب، وكأنَّ الزمخشريّ المعتزليّ قد وضع هذا الاسم الجديد للعلم ليخرج به عن مجال النزاع بين المعتزلة والأشعريّة حول الإعجاز هل هو النظم أو الفصاحة... وكانت كلمة البيان قد تردَّدت على لسان عبد القاهر في كتابه "أسرار البلاغة" فاتّخذها الزمخشريّ عَلَمًا على مباحثه فيه: وهي مباحث تناولت في تفصيلٍ التشبيهَ والاستعارة والمجاز بنوعيه اللغويّ والعقليّ أو الإسناديّ أو الحُكْميّ.. وبذلك كان الزمخشريّ أوّل من ميَّز بين هذين العلمين، فجعل لكلٍّ منهما مباحثه

الخاصّة واستقلاله الذي يشخّصه. ونُقل عنه أنَّه لم يكن يعدّ البديع علمًا مستقلاً بل كان يـــراه ذيلاً لعلمي المعاني والبيان، وسنرى السكاكيّ يتأثّر به في ذلك، وكأنَّه هو الذي ميَّز لأوّل مرّة بين علوم البلاغة الثلاثة، على الرغم من وجود شيء من التداخل بينها في بعض الأحيان.

طبَّق الزمخشريّ علوم البلاغة على آي الذكر الحكيم، لا سيَّما علما المعـــاني والبيـــان لتشابكهما في دلائل الألفاظ والتراكيب، وفي أسرار الإعجاز القرآنـــيّ ولطائفه الدقيقة.. إنَّ ما قام به الزمخشريّ إنَّما هو تبسيط كلّ القواعد التي قرَّرها عبد القاهر...

وعلى شاكلة تطبيق الزمخشريّ لنظريّة المعاني الإضافيّة التي صوَّرها عبد القاهر "الدئلال" مضى يطبّق نظريّة البيان: الكناية- التعريض- الاستعارة- والتشبيه والتمثيل- والمجاز العقليّ أو الإسناديّ..

لا ينحصر دور الزمخشريّ في تاريخ علم البلاغة بتطبيقـــه لنظريّـــات عبـــد القـــاهر الجرجانـــيّ، وإنَّما كان له دور كبير في العمل على اكتمال الشعب والفروع المختلفة لشجرة نظريّة المعاني، وهو كذلك الذي أعدَّ لاكتمال نظريّة البيان بشعبها وفروعها المتعدّدة.

وكلّ ما هنالك أنَّه بقيَ من يستقصيها ويتبعها عنده وعند عبد القـــاهر وينظّمهـــا في مصنّف يجمع متفرّقها ويضمّ منثورها. والطريف أنَّ الزمخشريّ وضعها في تضاعيف آي الذكر الحكيم، فهي دائمًا مقرونة بالمثال الذي يوضّحها ويكشف عن دقائقها.

التعقيد والجمود:

إنَّ الدراسات البلاغيّة التي ازدهرت عند عبد القاهر الجرجانـــيّ والزمخشريّ، من خلال الملاحظات المتّصلة بالإعجاز القرآنـــيّ التي وضعها الجرجانـــيّ وأكملها الزمخشريّ في تفسيره الذي يعدّ منجمًا عظيمًا يزخر بدقائق نظريّتي المعاني والبيان، النفيسة.

ومن المهمّ أنْ نذكر أنَّ عبد القاهر والزمخشريّ جميعًا لم ينفصلا عن النصوص، فـــالأوّل التمس شُعَبهما في نصوص كثيرة من التنـــزيل ومن الشعر والنثر، والثاني وصلهما دائمًا بآيات القرآن الكريم، مستشهدًا من حين إلى آخر بالشعر وكلام العرب..

لم يفعل من جاء بعدهما إلاّ إعادة درس ما وضعاه، والتعبّد لما قالاه وأحكماه، مما دفع بقواعد النظريّتين جميعًا إلى أنْ تصبح قواعد جافّة جامدة، تُطبّق تطبيقًا آليًّا...

لذلك فإنَّ الذين حاولوا أنْ يجددوا في العصر الحديث، تجاوزوا كلّ المؤلّفات الجامـــدة، وعادوا إلى عبد القاهر في كتابه دلائل الإعجاز: كما فعل الشيخ محمّد عبده، الذي تصـــدّى لتدريسه في الأزهر بعد أنْ يفرغ من عمله الرسميّ وهو الافتاء.

وتولّى تلميذه محمّد رشيد رضا نشر هذا الكتاب[1]، وكان ذلك أوّل تجديد في حياة الدرس البلاغيّ في العصر الحديث.. ولم يكن التجديد يومئذ غير إحياء لتراث عربيّ خلا من عوامل الجمود وأسبابه، وقد حاول بعده طه حسين في الجامعة أنْ يدرس هذا الكتاب على أنَّه نصٌّ يمكن أنْ يستفاد به في ترقية الأسلوب وضبط اللسان، ثم في ترقية الذوق الأدبيّ، من جهة منهج عبد القاهر في تحليل النصّ تحليلاً يعتمد على البصر باللغة وإدراك دقائقها.

[1]- البلاغة العربيّة، السيد أحمد خليل، دار النهضة العربية، بيروت 1968م.